القدس في العهد الأيّوبي

د. إبراهيم محمود زعرور
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة دمشق

احتلت مدينة القدس مكانة خاصة لدى العرب ، فهم الذين أطلقوا عليها تسمية « القدس » أي المقدسة . وقد اتخذت قبلة أيام النبي محمد ﷺ من باب التقديس لا التقليد ، وإليها كان الإسراء ومنها كان المعراج . والقدس ليست مجرد مدينة في ذاكرة الناس ووجدانهم ، تتشابه أو تلتقي مع عشرات الألوف من المدن المنتشرة فوق كوكبنا الأرضي ، ولكنها الرمز ، كانت ولازالت على مدى القرون الطويلة في صراع طويل أيضاً ومستمر بين حقنا وباطلهم ، بين حقيقتنا وتزويرهم وتزييفهم المتضمن اسطورتهم الخرافيــة . ونحن هنا نفخر ونفاخر أنه ليس من بلد من بلدان الدنيا لديــه مدينة فيها مقدسات كمدينة بيت المقدس ، فهي موطن كثيرٍ من الأنبياء والرسل . يقــول عنها القزويني « وهي المدينــة المشهورة التي كانت محل الأنبياء وقبلة الشرائع ومهبــط الوحي . وما فيــه من موضع شــبر إلا وصلى فيــه نبي أو قام فيــه ملك » [1] . وكذلك يروي لنا ابن الجوزي أن الكثير من المحدثين يجمعون على أن الله عز وجل منذ خلق آدم إلى الدنيا لم يبعث نبياً إلا جعل قبلتــه صخــرة بيت المقدس . وقد صلى إليها نبينا محمد ﷺ [2] . فهي مدينة عربية ، ومهوى أفئدة المسلمين وقرة أعينهم .

وهي مقدسة بذات القدر أيضاً عند المسيحيين . ففي المدينة كثير من الأماكن المقدسة التي ارتبطت بتراث المسيحيين مثل كنيسة القيامة ، حيث يحج إليها المسيحيون من مختلف الأقطار ، وبها الكنيسة التي يُقال إن المائدة نزلت على سيدنا عيسى عليه السلام والحواريين بها ، بل إن المسيحيين الغربيين كانوا يعتقدون في العصور الوسطى بوجه خاص أن زيارة بعض الأماكن قد تهب التحلل والتوبة من الذنوب [3] . وقد حررها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ١٨هـ – ٦٤٠م ، ودخلها راجلاً بكل تواضع وبدون

---

(١) آثار البلاد وأخبار العباد ، نشر دار صادر ، بيروت ١٩٦٠ ، ص١٥٩–١٦٠ .

(٢) فضائل القدس ، بيروت ١٩٨٠ ، ص١١٤ .

(٣) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة د. السيد الباز العريني ، بيروت ١٩٦٩ ، ج١ ، ص٧١ .

جيوش ولا مذابح ، لأن القدس مدينة السلام لا مدينة الدماء . وبهذا الدخول العمري إنتهت من تاريخ القدس عصور الفوضى الدينية والاضطرابات الكنسية ، وساد الاستقرار والأمن والحرية فيها . ويومذاك تأسس فيها المسجد العمري . لقد كان تحرير عمر بن الخطاب للقدس هو التحرير العربي الاسلامي الأول . ومشهورة الوثيقة التي أعطاها عمر لأهل المدينة (٤) . وقد كتبت الوثيقة بخط معاوية بن أبي سفيان بحضور خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص . وعندما سقطت مدينة القدس في أيدي الصليبيين في سنة ٤٩٢هـ - ١٠٩٩م ، قال ابن الأثير : « لبث الفرنج في البلدة اسبوعاً يقتلون المسلمين .. وقتلوا في المسجد الأقصى (غالباً يقصد الحرم الشريف مع المسجدين) ما يزيد على سبعين ألفاً ، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين رعبّادهم وزهّادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف » (٥) . وأعاد مجير الدين العليمي ذلك وأضاف إليه قوله : « حصروا المسلمين في الحرم الشريف ، وأعطوهم ثلاثة أيام للخروج من المدينة ، والمتأخرون يُقتلون » (٦) .

وقيل إن الصليبيين كتبوا إلى البابا بعد دخول مدينة القدس يفتخرون أن خيولهم خاضت في دماء المسلمين إلى الركب . فقد قتلوا المسلمين رجالاً ونساءً وأطفالاً بلا رحمة أو تمييز بين المحارب وغير المحارب . وهكذا بالقتل والإجلاء أخلى الصليبيون مدينة القدس من المسلمين ، وسكنوا في بيوتهم ، وحوّلوا مسجد قبة الصخرة إلى كنيسة . وجعلوا المسجد الأقصى ثكنة لفرسانهم وأسفله اصطبلاً لخيولهم (٧) ... الخ .

وقد تحمل العرب المسلمون وغير العرب الأذى والذل والقهر والاستعباد نحو تسعين سنة ، إلى أن خلّص صلاح الدين الأيوبي البطل المسلم القدس من أيدي الصليبيين في يوم الذكرى السنوية لإسراء رسول الله ﷺ إليها ، أي يوم الجمعة في السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٥٨٣هـ (الثاني من تشرين الأول / اكتوبر ١١٨٧م) وهو ما أطلق عليه التحرير العربي المسلم الثاني لمدينة القدس . وجاء هذا إثر النصر المبين في معركة حطين الشهيرة في تاريخ العرب والمسلمين ، وكذلك الشهيرة جداً في تاريخ الغرب الأوروبي . فقد اتسم هذا التحرير بالتسامح ، فلم ينتقم صلاح الدين من الصليبيين لما ارتكبوه من الجرائم الوحشية البشعة ، بل عفا ورحم وأعطاهم الأمان لأنفسهم وأموالهم حتى يبلغوا مأمنهم في الساحل . وبينما كان

(٤) تاريخ الطبري (مطبوعة دي غوية) ، ج١ (القسم الخامس) ، ص٢٤٠٥-٢٤٠٦ .

(٥) الكامل في التاريخ لابن الأثير (طبعة ليدن ، ١٨٦٤) ج١٠ ، ص١٩٣-١٩٤ .

(٦) كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، مجير الدين العليمي (القاهرة ، ١٢٨٣) ، ص٢٧٤ .

(٧) ذيل تاريخ دمشق لأبي يَعْلَى حمزة القلانسي (بيروت ، ١٩٠٨) ص١٣٧ . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (طبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٥٣هـ) ، ج٥ ، ص١٥٠ .

الفرنج يخرجون من المدينة أخذ جنود صلاح الدين يعاونهم من عاد إليها من المسلمين وعلى رأسهم العلماء يزيلون آثار الاحتلال الصليبي من مسجدي الصخرة والأقصى ، فغسلوا وبخّروا ورشوا بماء الورد . وفي أول يوم جمعة بعد التحرير صلى المسلمون وصلاح الدين وجنده معهم في المسجد الأقصى . وألقى ، بطلب من صلاح الدين ، قاضي دمشق محي الدين بن محمد القرشي خطبة خاصة قبل الخطبة المعتادة ، جاء فيها على ذكر الإسراء والمعراج والقبلة الأولى والمساجد التي تشد إليها الرحال إلى أن قال : « إياكم عباد اللـه أن يستزلكم الشيطان ، فيخـيل لكم أن هـذا النصر (كان) بسيوفكم الحداد وخيولكم الجياد . لا والله ، ما النصر إلا من عند الله ، فاحذروا عباد الله بعد أن شرفكم الله بهذا الفتح الجليل أن تقترفوا كبيرة من مناهيه ... والجهاد الجهاد ... انصروا الله ينصركم ... إعملوا لحسم الداء ، وقطع شأفة الأعداء ، وطهروا الأرض من هذه الأنجاس التي اغضبت الله ورسوله ... » (٨) .

اهتم صلاح الدين كثيراً بالمدينة بعد أن لبى نداء الجهاد حيث ان الدولة الأيوبية عكست الصحوة العربية والاسلامية التي جاءت رد فعل لظهور الوجود الصليبي في أرض المسلمين في الشرق الأدنى ، وتمثلت في حركة جهادية واسعة ، حيث أدرك العرب والمسلمون في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي أن نقطة البداية لمواجهة العدو الصليبي الذي أخذ بالانتشار فوق الأرض العربية والاسلامية ، يوماً بعد يوم ، مستولياً على المدن ومؤسساً الحصون ، ومعتدياً على العباد والأرزاق ، هي توحيد الصفوف ، وإقامة جبهة عربية وإسلامية متراصة وقوية ، تمتد من الفرات إلى النيل ، وتطوّق الخطر الصليبي وتجعله خنيقاً وسط محيط عربي وإسلامي واسع ، يطبق عليه من مختلف الجهات . وكان أن شرع عماد الدين زنكي ، حاكم الموصل ، في تنفيذ هذه الخطة ، واكتمل تنفيذها على يد نور الدين محمود بن زنكي الذي مدّ نفوذه من حلب إلى دمشق فالقاهرة عبر فلسطين ، حتى إذا ما توفي سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م ترك صلاح الدين في مصر ليحول هـذه الوحدة إلى طاقـة تعمل على تقويض البناء الصليبي على أرض الشام . وهذا ما تحقق في معركة حطين واستكمالاً تحرير القدس وتدمير المملكة اللاتينية فيها .

وقد تدبر صلاح الدين شؤون المدينة قبل مغادرتها ، وأعاد لها صفتها العربية والاسلامية ، وأمر بتسليم بيوت من قُتلوا أو أُخْرجوا لورثتهم ، وقوّاهم بإقطاع بعض أحياء المدينة لقبائل عربية : فأنزل بني حارث قرب القلعة ، وبني مُرّة في سوق الفخر (عُرف بخان الزيت فيما بعد) وبني سعد في الحي الذي عُرف فيما بعد بالسعدية ، وبني زيد بقرب باب الساهرة . وأمر بترميم المسجد الأقصى . وجاء إليه بالمنبر الذي « لم يُعمل في الاسلام مثله » من حلب حيث صُنع على مدى سنين بأمر نور الدين زنكي خاصاً باسم المسجد الأقصى (وهذا هـو المنـبر الذي حُـرق في سنة ١٩٦٩ بعـد الاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربيـة ولمدينـة

(٨) كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، مجير الدين العليمي ، ص٢٩٤-٢٩٨ (نص الخطبة كاملاً) .

القدس) . وأنشأ صلاح الدين في المدينة عدداً من المعاهد ، منها رباط للصوفية ومستشفى (بيمارستان) للمرضى . وأنشأ صلاح الدين أيضاً المدرسة التي عرفت فيما بعد باسمه ، وفوض إدارتها إلى القاضي بهاء الدين بن شداد . والغالب أنها خلفت « دار العلم » الفاطمية التي أنشأها العزيز في كنيسة القديسة حنّة (أم مريم العذراء) وقد أعاد الصليبيون بناءها (٩) .

أوقف صلاح الدين على هذه المعاهد وغيرها الأوقاف لضمان نفقة إدارتها . ثم أمر بتعمير سور المدينة وحفر الخندق حوله . وأقام مقبرة للمجاهدين بقرب باب الساهرة ، بالإضافة إلى مقبرة « مأمن الله » التي دنسها الصليبيون ومقبرة باب الرحمة خارج سور الحرم الشريف من الشرق .

ولم يرحل نصارى الشرق من أهل القدس مع الصليبيين ، بل طلبوا من صلاح الدين أن يُقيهم ففعل ، مع ان بعضاً منهم شايع الفرنجة وساعدهم . ولما رحل بطريرك اللاتين مع الفرنج الذين رحلوا ، خلا الميدان لإعادة تأسيس البطريركية الارثوذكسية التي ألغاها الصليبيون وقد تم ذلك برضى صلاح الدين ومساعدته . وأما اليهود الذين لم يُبق الصليبيون منهم حياً في المدينة ، فقد سمح صلاح الدين أن يقيم بعضهم في المدينة ، وفتح جميع بلاد مملكته للمضطهدين منهم ، فجاؤوا إليه يطلبون الأمن ويلاقون العدل ، كما شهد بذلك مؤرخهم الشهير (١٠) . ولكن لايمكن معرفة عددهم في القدس أثناء حكم صلاح الدين أو بعده . ويمكن تقدير عددهم على أساس أن الصليبيين بعد أن دخلوا القدس جمعوا كل اليهود في بناء واحد ثم حرقوه عليهم ، فالعدد الممكن جمعه في بناء واحد من أبنية تلك الأيام يقدر بالعشرات . وصلاح الدين مثّل السماحة والحضارة العربية الاسلامية بأبهى صورها ، حين أبقى الناس في المدينة على دياناتهم وسكنهم وأرزاقهم وغير ذلك . ومن الاستحالة تقدير عدد السكان في مدينة القدس من مسلمين أو نصارى أو يهود . فالرقم الذي ورد في رحلة ناصر خسرو قبل نصف قرن من الاحتلال الصليبي ، وهو عشرون ألفاً ، كان لجميع السكان دون تقسيم بين الطوائف المختلفة . وهذا الرقم لا معنى له إذا قيس بما قاله ابن الأثير من أن عدد قتلى المسلمين في الحرم الشريف وحده بلغ سبعين ألفاً ، فلا ناصر خسرو أحصى السكان ولا ابن الأثير أخذ عمن أحصى عدد القتلى . وهما بهذه الحالة سيان في اعتمادهما على التخمين . وكل ما يمكن استنتاجه من كل منهما أن عدد السكان كان كثيراً ، وأن عدد القتلى كان عظيماً . أما إحصاء هذا أو ذاك فعلمه عند الله .

ويؤخذ من رواية ابن الأثير أن الصليبيين قتلوا في الحرم الشريف عدداً من الأئمة والعلماء والعباد والزهاد و « ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف » ، وهذه الرواية لابن الأثير تبين أن هؤلاء كانوا من

(٩) هذا ما يستنتج من رواية أبي الفداء في تاريخه (تحت سنة ٥٨٨هـ) ، ج٣ ، ص٨٧ .

(١٠) Heinrch Graetz, History of the Jews (London 1892), Vol. III, p. 475.

المجاورين بقرب الحرم الشريف للعبادة والدرس عملاً بسنة كانت متبعة منذ الفتح الاسلامي ، وزادها مرور الزمن تأصيلاً وانتشاراً ثم أكدها وسهلها ما أنشأه صلاح الدين وخلفاؤه من الزوايا والربط والمدارس بقرب الحرم الشريف ، وما حبسوه عليها من أوقاف أمّن ريعها ما احتاج إليه المجاورون من مأوى وطعام وكسوة . ومجاورة أهل العلم والتقوى عند حرم بيت المقدس ضاهت مجاورتهم عند الحرمين الشريفين في مكة والمدينة . وجرت عادة المجاورين التنقل من حرم إلى حرم رغبة في اكتساب المزيد من البركة والعلم . وأخذ كثيرون منهم يأتون جماعات مع عائلاتهم وأقربائهم ويقيمون بجوار الحرم الذي اختاروا الاقامة بجواره . ومن هذه الجماعات طائفة هاجرت من المغرب ، وجاورت عند الحرم الشريف في بيت المقدس ، بقرب الزاوية الجنوبية الغربى لحائط الحرم ، وفي أقرب مكان للمسجد الأقصى ، فعُرفت هذه الناحية بحي (حارة) المغاربة .

وكان المغاربة مقيمين في هذا الحي عند الاحتلال الصليبي ، فقُتل بعضهم وأُجلي البعض الآخر . ثم عاد أبناء هؤلاء وأحفادهم إلى المجاورة بعد الفتح الصلاحي للقدس وتحريرها من الغزاة . وبعد خمس سنوات من ذلك خلف الملك الأفضل والده صلاح الدين على مُلك دمشق والقدس ، فأوقف في سنة ٥٨٩هـ أرض حارة المغاربة عليهم ذكوراً وإناثاً « ليسكنوا في مساكنها وينتفعوا بمنافعها » ، وأنشأ لهم في الحارة نفسها مدرسة عرفت بالأفضلية (١١) . وصارت أوقاف حي المغاربة كلها تُعرف بوقف أبي مدين (١٢) ، ويُعرف الحد الشرقي لهذه الأوقاف بحائط البراق ، لأن البراق الذي حمل رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ليلة الاسراء ربطه جبريل عليه السلام هناك .

ونظرة أخرى إلى البينات تبين أن ناصر خسرو ، الرحالة الفارسي الذي زار القدس قبل الاحتلال الصليبي بنحو خمسين سنة ، لم يذكر المبكى ولا بكاء اليهود عند حائطه كما يزعمون ويتوهمون ، وهما الزعم والتوهم اللذان لا يستندان إلى أي حقائق علمية تاريخية ، لأن كل أعمال التنقيب والبحث والاستقصاء والدراسات التي قام بها علماء آثار من العالم وكذلك من اليهود لم يقفوا على أثر واحد أو كلمة واحد أو نقش أو حرف أو أي شيء آخر يدلل على علاقة اليهود المزعومة بالقدس وما حولها وبفلسطين بشكل عام . وكذلك الغزالي العالم الذي أقام بزاوية داخل الحرم الشريف قبل الاحتلال الصليبي بنحو أربع سنوات لم يذكر من ذلك شيئاً . ولا علم لنا أن غيرهما من الرحالة غير المسلمين قد ذكر شيئاً عن ذلك . فهذا الراهب الألماني فلكس فابري الذي زار القدس في سنة ١٤٨٤م في أواخر عصر

---

(١١) المحكمة الشرعية بالقدس الشريف : سجل رقم ٧٧ ، صفحة ٥٨٨ ، وقد نشر النص الكامل ملحقاً ثانياً في كتاب .
The Islamic Pious Foundations in Jerusalem : Origins, History, and Usurpation by Israel (London, 1978), p. 59.

(١٢) نشرت نص وقفية أبي مدين في الملحق الأول ، ص٥٥-٥٧ من الكتاب المذكور آنفاً أعلاه .

المماليك ، وكتب رحلة مفصلة في أربع مجلدات لم يُشر فيها إلى « الحائط الغربي » أو بكاء اليهود عنده . ومع أنه كان كاثوليكياً متعصباً كره نصارى الشرق كرهه لليهود والمسلمين ، فقد نسي تعصبه عندما زار بلدة الخليل ، فوجد فيها مستشفى للفقراء ، فأعاد ما قاله المقدسي وناصر خسرو من وجود مطبخ ومخبز لإطعام الفقراء والحجاج (١٣) . لكن بعض الرحالة من يهود أوروبا ذكروا « الحائط الغربي » ذكراً غامضاً . ومن أشهرهم الحاخام بنيامين ، أحد رعايا مملكة نافار الذي زار القدس حوالي سنة ١١٦٨م أثناء الحكم الصليبي . ولما كان دخول اليهود إليها حينئذ ممنوعاً ، فالغالب أن بنيامين دخلها مُتخفياً ، إذ أن ما كتبه ، وهو قليل جداً ، يشبه نقل الكلام عن حكاية ، أكثر من كلام من رأى رأي العين . جاء في المقدمة العبرية أنه وصف « ما رأى وروى ماسمع » . ويقول إن سكان القدس كانوا من الفرنج ونصارى الشرق . وعدم ذكر المسلمين مفهوم ، فالصليبيون أفنوهم ، لكن بنيامين يزعم أنه وجد من اليهود فيها نحو مئتين بقرب القلعة عند مدبغة دفعوا عنها أجرة لملك الفرنج . وخلافاً لعادته في ذكر أحوال من رأى من اليهود في المدن الأخرى وذكر أسماء وجهائهم ، فانه لم يقل إنه رأى أحداً من يهود القدس أو كلمه . وهذا بطبيعة الحال يدعو إلى الشك في صحة قوله . ويزيد هذا الشك قوة أن بنيامين كرر الخطأ بنسبة بناء قبة الصخرة إلى عمر بن الخطاب ، والخطأ الثاني في الجملة نفسها هو قوله « ويوجد أمامها الحائط الغربي ، أحد حيطان الهيكل ، وهو يسمى باب الرحمة ، وكل اليهود يذهبون إليه للصلاة ، أمام حائط ساحة الهيكل » (أي ساحة الحرم الشريف) . أما موقع باب الرحمة عند المسلمين فإلى الشرق لا إلى الغرب من قبة الصخرة ، والادعاء بأن « كل اليهود » يصلون عند الحائط مستحيل تحت حكم الصليبيين عندما كان مسجد قبة الصخرة كنيسة . والمهم في كل ذلك أن بنيامين لم يقل إنه هو زار الحائط الغربي أو صلّى عنده أو رأى غيره يصلي هناك (١٤) . وهذا يوضح بشكل كافٍ ، من جهة أخرى ، أوهام اليهود وادعاءاتهم الباطلة ورواياتهم التي تفتقر إلى المنهجية العلمية وحقائق التاريخ المعروفة . والتحول الهام الذي حصل بالنسبة لبيت المقدس جاء بعد فتح صلاح الدين الأيوبي المدينة عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م عقب معركة حطين (١٥) ، كما أن اتفاقية الرملة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد عام ٥٨٧هـ /

---

(١٣) (Part 2), p. 417. Palestine Pilgreims, Text Society, Vol. X.

(١٤) رحلة بنيامين : للرحالة الربّي بنيامين بن يونـة القطيلي النّياري الاندلسي ، ترجمها إلى العربية عزرا حداد (بغداد ، ١٩٤٥) ، ص٩٩-١٠١ ، عرّف هذا المترجم اليهودي الحائط الغربي بقوله « هو حائط البراق المعروف اليوم بحائط المبكى . ويسميه اليهود الحائط الغربي للهيكل الذي عمره هيرودُس » ، راجع كلام بنيامين في ترجمة انكليزية لرحلته في مجموعة عنوانها :

Early Travels in Palestine, Edited by Thomas Wright (London, 1848), p. 83.

(١٥) العماد الأصفهاني : كتاب الفح القسي في الفتح القدسي ، طبع القاهرة ١٩٠٣ ، ص٤٧ .

١١٩١م أدت إلى حالة من الاستقرار النسبي في المدينة [١٦] . إلا أن هذا الاستقرار لم يدم طويلاً في عصر خلفاء صلاح الدين مما ترتب عليه نتائج خطيرة بالنسبة لمدينة بيت المقدس [١٧] . ويرجع ذلك إلى الصراع الذي نشب بين أبناء البيت الأيوبي المالك ، ولحرص صلاح الدين الأيوبي على أن تكون أهم أقاليم المملكة لأبنائه دون غيرهم ، وأن تكون لبقية أبناء البيت الأيوبي بقية الأقاليم ذات الأهمية الثانوية [١٨] . هذا الصراع الذي أدى إلى نشوب كثير من الحروب والفتن بين أبناء البيت الأيوبي [١٩] .

وفي الوقت الذي اشتد فيه الصراع بين أبناء صلاح الدين ، وتناوب على حكم مدينة بيت المقدس الملك الأفضل صاحب دمشق ، ثم الملك العزيز صاحب مصر ، مما كان له أثر على استقرار المدينة نتيجة لانتقال تبعيتها من حاكم لآخر [٢٠] من أبناء صلاح الدين ، وعقب استيلاء الملك العادل أخي صلاح الدين على مصر سنة ٥٩٦هـ / ١١٩٩م ، بقي بيت المقدس تحت حكم العادل حتى وفاته سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م . وبموت العادل عادت مدينة بيت المقدس تابعة لابنه المعظم عيسى صاحب دمشق حتى سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م حيث استولى عليها الكامل محمد بن العادل صاحب مصر [٢١] . وفي وسط تلك الفوضى الضاربة التي عمت العلاقات بين حكام المسلمين في مصر والشام من أبناء البيت الأيوبي ، حرص كل حاكم على تكوين عصبية لنفسه يعتمد عليها في الاحتفاظ بإماراته أو في صد عدوان جيرانه ، وذلك عن طريق الاكثار من المماليك أو الرقيق الأبيض ، فاشتروا منهم أعداداً كبيرة ، وعنوا بتدريبهم وتنشئتهم ليكونوا لهم عدة وسنداً [٢٢] .

---

(١٦) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ، جزءان ، طبع مطبعة وادي النيل بالقاهرة ١٢٨٧هـ ، ج٢ ، ص٢٠٤ . المقريزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، طبعة ثانية ١٩٥٦ ، قسم ١ ، ص١١٠ .

(١٧) سعيد عبد الفتاح عاشور « بعض أضواء جديدة على مدينة القدس في العصرين الأيوبي والمملوكي » بحث مقدم للمؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام ، ابريل / نيسان ١٩٨١ ، ص١ ، ٣ .

(١٨) المقريزي : المصدر السابق ، ج١ ، قسم ١ ، ص١١٤–١١٥ . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبع دار الكتب المصرية ، ١٩٣٦ ، ج٢ ، ص١١٣–١٢٢ . أحمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، طبع الاسكندرية ، ١٩٨٢ ، ص٨٨ .

(١٩) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، طبع دار صادر ، بيروت ١٩٦٦ ، ج١٢ ، ص٩٧–١١٠ .

(٢٠) أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص٢٢٤–٢٢٦ . المقريزي : السلوك ، ج١ ، قسم ١ ، ص١١٤–١١٧ . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص١٢٢–١٢٦ .

(٢١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج١٢ ، ص٣٥١ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ . المقريزي : نفس المصدر ، ص٢٢٦ .

(٢٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، طبع القاهرة ١٩٧٠ ، ص١٩٨ .

والحقيقة المؤلمة في هذا الدور الجديد من الصراع بين أبناء العادل الأيوبي ، أنهم لم يكتفوا في حروبهم ومنازعاتهم الداخلية فيما بينهم بالاستعانة ضد بعضهم بعضاً بالقوى الجديدة من المماليك ، والذين غدوا الفيصل في تلك المنازعات ، بل استعانوا ضد بعضهم بعضاً بقوى خارجية من الصليبيين (٢٣) . وإن دل هذا التصرف على شيء فإنما يدل على مدى التشرذم السياسي وعدم الوعي بحقيقة الخطر الذي كان يهدد العالم الإسلامي في ذلك الوقت ، ونقصد بهذا الخطر ، هدف الصليبيين وهو القضاء على الاسلام والمسلمين في السواحل العربية الاسلامية الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط ، ويبدو أن هذه الحقيقة لم تكن خافية عن أعين المعاصرين ، فمن ذلك ما يرويه لنا المؤرخ المعاصر « ابن واصل » من أنه عندما شرع حنا دي بريين في غزو مصر سنة ٦١٤هـ / ١٢١٨م ، على رأس الحملة الصليبية الخامسة ، قال الصليبيون : « إن الملك الناصر صلاح الدين إنما استولى على الممالك ، وأخرج القدس والساحل من أيدي الفرنج بملكه ديار مصر وتقويته برجالها ، فالمصلحة أن نقصد مصر ونملكها وحينئذ لا يبقى لنا مانع من أخذ القدس وغيرها من البلاد » (٢٤) .

مما يؤكد لنا تلك الحقيقة بما لا يدع مجالاً للشك أنه منذ أواسط القرن الثاني عشر الميلادي سيطرت على الغرب المسيحي الفكرة السائدة أنه مادامت مصر باقية على ما هي عليه من القوة والبأس ، فإن المشاريع الصليبية في بلاد الشام فاشلة لا محالة – (إن أحداث التاريخ تتشابه ، فما أقرب اليوم من الأمس البعيد) – ولابد من حرمان الجبهة العربية الاسلامية من تلك القاعدة الحربية المهمة (٢٥) ، والتي جعلها لويس التاسع وسيلة لتحقيق نياته وأحلامه الصليبية في حملته السابعة . فقد « حدثته نفسه بأن يستعيد بيت المقدس إلى الفرنج وعلم أن ذلك لا يتم إلا بملك الديار المصرية » (٢٦) . وكانت النتيجة الطبيعية لتفريط بعض ملوك بني أيوب من أبناء العادل الأيوبي أن استرد الصليبيون بيت المقدس دون قتال سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م ، في عصر الملك الكامل صاحب مصر ، وذلك أنه نتيجة الخلاف الذي نشب بينه وبين أخيه الملك المعظم صاحب دمشق ، فقد استعان كل طرف منهما بقوى خارجية حسبما يشير المقريزي ، أنه بعد أن « تأكدت الوحشة بين الكامل وبين أخويه المعظم والأشرف ، وخاف الكامل من انتماء أخيه المعظم إلى

---

(٢٣) على سبيل المثال انظر : المقريزي : السلوك ، ج١ ، قسم ١ ، ص٢٢٨–٢٣٢ . عن استعانة الملك الكامل بالامبراطور فردريك الثاني في صقلية ضد الملك المعظم صاحب دمشق مقابل التنازل له عن بيت المقدس .

(٢٤) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٠ ، ج٢ ، ص٣ ، ص٢٥٨ . سعيد عبد الفتاح عاشور : « بعض أضواء جديدة على مدينة القدس » ، ص٢ ، ص٣ . أحمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك الأولى ، ص١٠١ .

(٢٥) Lan-Pool : A History of Egypt in The Middle Ages, London, 1925, p. 218.

(٢٦) ابن واصل : المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٣٥١ .

السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه ، فبعث الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويّـه إلى ملك الفرنج [٢٧] يريد منـه أن يقدم إلى عكا ووعده أن يعطيه ما بيد المسلمين من بلاد الساحل ، ليشغل سر أخيه المعظم ، فتجهز الامبراطور ملك الفرنج لقصد الساحل ، وبلغ ذلك المعظم ، فكتب إلى السلطان جلال الدين يسأله النجدة على أخيه الكامل ووعده أن يخطب له ، ويضرب السكة باسمه » [٢٨] . وعلى الرغم من وصـول فردريـك الثاني بعـد موت الملك المعـظم فإن الملك الكامل ، على حسب قول المقريزي « لم يمكنه دفعـه ولا محاربتـه ، لما كان تقدم بينهما من اتفاق ، فراسله ولاطفه » [٢٩] . ولم يكن أمامه « بد من المهادنة وتسليم القدس » [٣٠] ، وبذلك تم توقيع الاتفاق على أساس تسليم القدس وبيت لحم والرملة وشريط من الأرض بين عكا وبيت المقدس ، مقابل تعهد الامبراطور بعدم قدوم أي حملة من أوروبا لمدة عشر سنوات [٣١] . وقد كانت هذه المعاهدة مكسباً كبيراً لفردريك الثاني ، إذ أتاحت له سرعة العودة إلى الغرب لتسوية مشاكله مع البابوية [٣٢] . وقد كان لتسليم بيت المقدس للفرنجة دوي هائل في نفوس المسلمين . ويصف لنا أحد المؤرخين المعاصرين ذلك ومدى حزن المسلمين لضياعها بقوله « ووصلت الأخبار بتسليم القدس إلى الفرنج ، فقامت القيامة في جميع بلاد الإسلام واشتدت العظايم بحيث أن أقيمت المآتم » [٣٣] و « ظلت المدينة بعد ذلك كالكرة تتلاقفها أيدي المسلمين والصليبيين ، حتى استردها المسلمون نهائياً سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م عندما استردها السلطان الصالح أيوب بمساعدة الخوارزمية ، وهو السبب الذي أدى إلى قيام الحملة الصليبيـة المعروفـة بالسابعة بقيادة لويس التاسع على مصر ، وفي ظل هذه الأوضاع كان لا يمكن أن تعود الحياة الطبيعية إلى المدينة بسهولة ، وإنما استمرت تعيش في حالة من الخوف والقلق والترقب حتى بعد عودتها إلى أحضان الأمة

---

(٢٧) يقصد المقريزي بملك الفرنج فردريك الثاني امبراطور الدولة الرومانية المقدسة وكان هذا الامبراطور قد نذر يوم تتويجه سنة ١٢١٥م / ٦١٢هـ أن يرافق الحملة الصليبية المعروفة في التاريخ الأوروبي بالخامسة ، والتي كان غرضها الديار المصرية ، غير أن أموراً داخلية عاقته ومنعته من تحقيق ذلك فلم يستطع الوفاء بما نذر له ، وسارت الحملة بقيادة حنا دي بريين ، لمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة المقريزي في كتابه السلوك ، ج١ ، قسم ١ ، ص٢٢١ ، حاشية ٣ .

(٢٨) المقريزي : السلوك ، ج١ ، قسم ١ ، ص٢٢١-٢٢٢ .

(٢٩) المصدر نفسه ، ج١ ، قسم ١ ، ص٢٢٩ .

(٣٠) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ٤ أجزاء ، طبع المطبعة الحسينية المصرية ١٣٢٥هـ ، ج٣ ، ص١٤١ .

(٣١) المقريزي : المصدر نفسه ، ج١ ، قسم ١ ، ص٢٣٠ .

(٣٢) Cam Med Hist, Cambridge, 1957, Vol., p. 147.

(٣٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان . القسم الأول والثاني من الجزء الثامن ، حيدر آباد الدكن ، الهند ١٩٥١ ، ج٢ ، ص٤٣٢ .

الاسلامية ، وذلك أن أهالي بيت المقدس ظلوا لا يأمنون على أنفسهم وحاضرهم ومستقبلهم ، وفي مواجهتهم على الساحل تقوم مملكة صليبية حاضرتها عكا ، تترقب اليوم الذي تعود فيه عقارب الساعة إلى الوراء لتحيي مجدها القديم على أرض بيت المقدس . هذا فضلاً عن وجود العديد من الإمارات ، والمدن والقلاع الصليبية المنتشرة في أنحاء بلاد الشام ، والتي كان الصليبيون فيها يتطلعون إلى كنيسة القيامة في بيت المقدس ، ويتحينون الفرصة تلو الأخرى لاستعادتها (٣٤) .

وفي ظل هذا القلق وعدم الاستقرار الذي شهدته مدينة بيت المقدس في تلك الفترة من تاريخها ، رغب كثير من المسلمين عن الحياة فيها ، الأمر الذي جعل القزويني في النصف الأول من القرن السابع الهجري / الثالث عشر للميلاد ، يردد نفس العبارة التي سبق أن ذكرها المقدسي قبل ذلك بقرنين ونصف تقريباً من أن مدينة بيت المقدس « قليلة العلماء كثيرة النصارى » (٣٥) .

وفي الوقت الذي كانت فيه قوات لويس التاسع تخوض مياه البحر المتوسط قبالة دمياط ، وكانت جحافل المغول بقيادة هولاكو تطوي بلدان الشرق الاسلامي ، وهي تقترب من عاصمة الخلافة العباسية بغداد ، وكان على العالم الاسلامي أن يلتزم جانب الدفاع إزاء الهجوم الذي كان يتعرض له من الشرق والغرب على حد سواء ، كان انتصار فرسان المماليك في مصر على الصليبيين بين المنصورة وفارسكور سنة ٦٤٦هـ / ١٢٥٠م ، ذلك الانتصار الذي كان بمثابة صرخة الميلاد لدولة سلاطين المماليك (٣٦) . ثم تلا ذلك سقوط بغداد في أيدي المغول سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ، وبهذا خيل للمسلمين أن العالم على وشك الانحلال وأن الساعة آتية عن قريب (٣٧) .

وبقيام دولة سلاطين المماليك في مصر عند منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، ظلت بلاد الشام ميداناً لصراعات عديدة بين المسلمين والصليبيين ، وبين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر ، فضلاً عما كان بين ملوك بني أيوب بعضهم البعض . ومع بداية تلك الفترة التاريخية دخلت مدينة بيت المقدس دائرة الصراع بين الأيوبيين في بلاد الشام ممثلين في الملك الناصر يوسف صاحب دمشق ، وبين المماليك بزعامة الملك المعز أيبك (٣٨) . ويهمنا من هذا الصراع أن كلاً من الطرفين حاول الاستعانة

---

(٣٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : « بعض أضواء جديدة على مدينة القدس » ، ص٤ .

(٣٥) القزويني : اثار البلاد وأخبار العباد ، نشر دار صادر ، بيروت ١٩٦٠ ، ص١٦١ . سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص٤-٥ .

(٣٦) قاسم عبده قاسم : دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي ، دار المعارف ١٩٧٩ ، ص١٠ ، ١٤٥-٢٠١

(٣٧) السيوطي ، تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة ، القاهرة ١٢٥١هـ ، ص٣٠٩ .

(٣٨) ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٧ ، ص١٠ ، في ذكر وفيات سنة ٦٤٨هـ .

بالصليبيين ضد الطرف الآخر . ويؤكد لنا جوانفيل – وهو معاصر لتلك الفترة – ذلك بقوله إنه بينما كان الملك لويس التاسع (القديس لويس كما يسميه) في عكا سنة ١٢٥٠-١٢٥١م ، فإن حاكم دمشق أرسل بعض مبعوثيه لكي يروا الملك ، وليشكوا مر الشكوى من أمراء مصر الذين قتلوا ابن عمه . وقد وعد حاكم دمشق لويس إذا ساعده أن يسلمه بيت المقدس . ثم يقول في موضع آخر : « ونسيت أن أذكر لكم رد الملك لويس على سلطان دمشق بأنه ليس لديه النية للإنضمام إلى سلطان دمشق ، إلا إذا عرف هل أمراء مصر سوف يقدمون له تعويضاً أو ترضية مقابل المعاهدة التي نقضوها . ولذا سوف يرسل لهم ، فإذا رفضوا التعويض فإنه سوف يسعده أن يساند سلطان دمشق للثأر من ابن عمه . وعندما أرسل لأمراء مصر يطالبهم بذلك التعويض ، ردوا عليه أنه يسعدهم أن ينفذوا ذلك على افتراض أن الملك سوف ينضم للتحالف مع سلطان دمشق . وقد أقنعهم مبعوثه بضرورة تلك الترضية عن طريق افتكاك أسرى الصليبيين المحجوزين لديهم . وفعل الأمراء كما نصحهم مبعوث الملك . ثم عاد مبعوث الملك إلى عكا ومعه مائتان من الفرسان المأسورين بالإضافة إلى عدد آخر من ذوي المراتب السلطانية » . ثم يقول : « إن الملك أعطى رده لمبعوث أمراء مصر بأن أخبرهم بأنه لن يتحالف معهم ضد سلطان دمشق إلا إذا أرسلوا له رؤوس القتلى الصليبيين التي علقوها على أسوار القاهرة » . كما يروي أنه في عام ١٢٥٢م وصلت موافقة أمراء مصر على طلبات الملك ، متعهدين بأن يصل الملك في يوم محدد إلى يافا ، وهم سيكونون في غزة في ذلك اليوم لكي يسلموه بيت المقدس . ومعنى هذا أننا عن طريق تمسكنا بإيماننا أصبحنا مرتبطين بمساعدة أمراء مصر ضد سلطان دمشق » (٣٩) .

وفي هذه الرواية خير دليل على استعانة كل منهما بالصليبيين . كما يرى بعض المؤرخين العرب أن السلطان أيبك ، لكي يضمن توطيد نفوذه في مصر ، قرر أن يواصل زحفه نحو الشام عقب الصراع الذي نشب بينه وبين الناصر يوسف . ولكي يضمن النجاح لمشروعه ، حاول أن يضم لويس التاسع إلى جانبه . ووعده ببيت المقدس بمجرد استيلائه عليه من الملك الناصر يوسف (٤٠) . إلا أن تدخل الخليفة العباسي المستعصم هو الذي أنقذ الموقف ، فأراد توحيد الجبهة العربية الاسلامية ، نظراً لشعوره بخطر المغول . وتمكن رسوله نجم الدين البادرائي من عقد صلح بينهما سنة ٦٥١هـ / ١٢٥٣م ، على أن يكون للمماليك مصر وجنوب فلسطين بما في ذلك غزة وبيت المقدس ، بينما تظل الشام للملك الناصر (٤١) .

---

(٣٩) Joinville and Ville Hardouin : Chroniches of The Crusades, Penguin Classics, London 1963, pp. 274-296.

(٤٠) أحمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك الأولى ، ص١٢٥ . ويتفق معه في الرأي كذلك رنسيمان : تاريخ الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني ، نشر دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٩ ، ج٣ ، ص٤٧٥ .

(٤١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص١٢ .

وفي رأينا أن مدينة بيت المقدس لم تخضع طويلاً لسلطة المماليك نتيجة لهذا الاتفاق ، فبعد ما يقرب من ثلاث سنوات تم توقيع معاهدة بين السلطان أيبك والناصر يوسف صاحب دمشق تنازل فيها أيبك عن فلسطين بما فيها مدينة بيت المقدس بناء على توسط الخليفة العباسي (٤٢) . وبذلك ظلت المدينة في الفترة ما بين ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م - ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م بأيدي الناصر يوسف صاحب دمشق ، وهي السنة التي شهدت اجتياح المغول لبلاد الشام من شمالها إلى جنوبها . وفي أثناء الغزو المغولي ظهر جلياً تقاعس الأيوبيين عن الدفاع عن بلاد الشام . من ذلك أن الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب أوجس خيفة من هولاكو وجيشه ، وقدر أنهم سيستولون على الشام بين عشية وضحاها ، لذا أرسل ابنه الملك العزيز محمد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م إلى هولاكو يخطب وده ، ويسأله أن يعينه على أخذ مصر من المماليك (٤٣) . وفي الوقت الذي بدأ فيه تخاذل الأيوبيين عن الدفاع عن ديار العرب وعن الاسلام والمسلمين ضد الغزو المغولي ، انهارت أيضاً معارضتهم لقيام دولة المماليك الذين أبدوا ثباتاً وصلاحية للبقاء لمواجهة هذا الخطر (٤٤) . ثم كانت موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م بمثابة تأكيد للدور الذي اضطلعت به دولة سلاطين المماليك منذ مولدها ، وهو دور القوة الضاربة المدافعة عن العالم الاسلامي ، حيث تمكنت جيوش الدولة الجديدة من كسر الموجة المغولية الطاغية ، وبذلك تأكد دورها كقوة حامية للعالم الاسلامي (٤٥) . هذا فضلاً عما ترتب على هذه الموقعة من نتائج كان منها خضوع بلاد الشام ومنها بيت المقدس لسيطرة سلاطين المماليك ، وما ترتب على ذلك من تجنب المدينة الكثير مما لحق بغيرها من مدن بلاد الشام من دمار وفناء وإحراق وانتهاك لمقدسات العرب والمسلمين وبيوتهم ، مثلما أصاب حلب ودمشق وغيرهما من المدن الشامية التي وقعت بأيدي يالمغول ، حيث نشروا الرعب والفزع أينما حلوا » (٤٦) .

بانحسار النفوذ الصليبي ، استعادت فلسطين ، بكل مدنها وقراها ، وخاصة مدينة بيت المقدس ، طابعها العربي والاسلامي الأصيل ، واستتب الأمن والسلام ، الأمر الذي ترتب عليه ازدهار وانتعاش الحياة الاقتصادية ، وجاء الزوار لبيت المقدس من مختلف الأمصار والبلدان . وغدا المسجد الأقصى مقصد العلماء والفقهاء والمحدثين ورجال الدين من المعلمين والمتعلمين . هذا في الوقت الذي لم يُحرم أهل الكتاب ، من

---

(٤٢) المقريزي : السلوك ، ج١ ، قسم ١ ، ص٣٩٨ .

(٤٣) نفس المصدر ، ج١ ، ص٤١٠-٤١١ .

(٤٤) المصدر السابق ، ج١ ، ص٤٣١ ، أحمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك الأولى في مصر ، ص١٦٨ .

(٤٥) قاسم عبده قاسم : دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي ، ص١٧١-١٧٢ .

(٤٦) أبو الفدا اسماعيل : تاريخ أبي الفدا ، طبع القسطنطينية ١٢٨٣هـ ، ج٣ ، ص٢١٤ . المقريزي : السلوك ، ج١ ، قسم ١ ، ص٤٢٣-٤٣٢ .

زيارة الأماكن المقدسة في أمان تام وحرية كاملة ، حتى أن صلاح الدين خصص حراسة لحجاج المسيحيين الذين اتجهوا إلى زيارة كنيسة القيامة . ويقول أبو شامة عن الموقف ، غداة صلح الرملة سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م « ووصل خلق عظيم العدد من المسيحيين الحجاج إلى القدس ، وفتح لهم السلطان (صلاح الدين) الباب في ذلك ، وأنفذ معهم الخفراء يحرسونهم حتى عودتهم إلى يافا » .

والأمر المثير للانتباه ، ونحن نتناول القدس في العصر الأيوبي بكل ظروفه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعسكرية وغير ذلك ، ندرك بشكل يقيني أن القدس رمز في صراع جديد قديم بين القوى العربية في المنطقة وقوى البغي والعدوان الآتية من خارجى المنطقة ، تفرض منطق الاستيطان العنصري المتسربل برداء الدين . والقدس في ماضينا القريب كانت رمزاً لصراع بين العرب والقوى الصليبية التي وفدت إلى المنطقة تزرع فيها كياناً دخيلاً ، فما أشبه اليوم بالبارحة !

والقدس كانت محور الدعوى الصليبية بالأمس ، كما هي محور الدعاوي الصهيونية اليوم . فقد جاء الصليبيون في أخريات القرن الحادي عشر تحت راية الصليب بدعوى تحرير القدس من العرب المسلمين ، وادعوا أن فلسطين أرض الميعاد ، وأنهم شعب الله المختار الذي اصطفاه للمهمة المقدسة لتحرير ضريح المسيح من المسلمين . ولا غرو فقد ورث الصليبيون العهد القديم (التوراة) بكل ما فيها . وها نحن اليوم نواجه العدوان الصهيوني / الأمريكي تحت الراية نفسها ، وفي ظل المزاعم ذاتها . فاليهود يزعمون أنهم شعب الله المختار ، وأن القدس وفلسطين هي الأرض التي وعدهم الرب بها .

وفي غمار الهجمة الصليبية والعدوان الصهيوني على السواء ، ارتكب الصليبيون الأوروبيون ، ومن ثم الصهيونيون بدعم أوروبي / أمريكي ، قديماً وحديثاً ، أبشع صنوف الجرائم والمذابح وهم يرفعون راية الدين ويتمسحون بالقدس « مدينة السلام » . وبعد أن عرف العرب كيف يواجهون الهجمة الصليبية تحت راية واحدة ، نجحوا في دحر العدوان الصليبي وقضوا على شراذم القادمين من الغرب الأوروبي للاستيطان في أرض العرب . ولن يستطيع العرب هزم الصهيونية وحلفائها من قوى العدوان الأوروبية والأمريكية إلا حين يعرفون أن وحدتهم هي الطريق .

وبينما كانت القدس رمزاً وستاراً للعدوان في كل من الحركة الصليبية والحركة الصهيونية ، كانت المدينة المقدسة مركزاً للبناء ، وبؤرة حضارية وثقافية هامة في الحضارة العربية الاسلامية [٤٧] . ولم تكن القدس في الحضارة العربية الاسلامية واجهة تخفي النيات العدوانية ، والمقاصد الهمجية ، والأغراض الاستيطانية ، بل كانت قبلة للعلماء ، ومقصداً للدارسين ، ومناراً مرشداً لصناع الحضارة وروادها من كل

(٤٧) قاسم عبده قاسم ، مقدمة كتاب القدس في العصر المملوكي ، طبعة القاهرة ١٩٨٦ .

مكان ، وظلت القدس مدينة السلام ، زرع فيها صلاح الدين الأيوبي ومن خلفه من السلاطين روح التسامح والحب والثقافة والعلم والمعرفة . وعانت المدينة زمن الصليبيين العنف والدمار والتعصب والرعب . وهو تماماً ما فعلتـه وتفعله اسرائيل منذ داست أقدام الصهاينة تراب المدينة المقدسة ولاتزال . إننا ننتظر ونتطلع إلى يوم يتوحـد فيـه الجهد العربي عملاً وكفاحاً ونضالاً ضـد العـدو من أجل تحرير القـدس مدينـة السـلام .